العربية فى السودان *

للأستاذ الدكتور عبد الله الطيب

هذا عنوان كتاب قيم ألفه أحد السابقين إلى ربط السودان بهذا المجمع الكريم. بل قل أحد اثنين هما فاتحة من كرم بعضوية هذا المجمع من أبناء السودان. وذانك الشيخ العلامة الفقيه محمد نور الحسن وكيلى الجامع الأزهر سابقا والشيخ العلامة عبد الله عبد الرحمن الضرير أستاذ العربية بكلية غوردون سابقا، وقد تشرفت بزمالته حينًا قصيرا من الدهر ولكن عرفته قبل ذلك ومن بعد، رحمهما الله رحمة واسعة. وأحسن المرحوم الوزير يحيى الفضلي رحمه الله إذ أعاد طبع العربية في السودان. وأحسن جماعة من أقارب المرحوم الشيخ محمد نور الحسن إذ أعادوا طبع تفسير "سورة النجم" ومؤلفات أخرى .

هذا وما أريد فى هذه الكلمة أن أتحدث عن هذين العالمين الجليلين ولا عن كتابيهما . ولكنى أردت أنه لا يدخلني تجاوز عن بعض الحديث عنهما في طائلة عتاب جرير حيث قال:

تمرون الديار ولم تعوجوا
كلامكمو علىّ إذن حرام

الذى أريد أن أتناوله هنا هو إثارة موضوع دخول العربية في بلاد السودان متى دخلت ؟ وكيف دخلت؟ وقد قرأت بعض ما كتب حول هذا المجال لا فيه نفسه- من بعض علمائنا ومؤرخينا في السودان، مثل: الأستاذ محمد عبد الرحيم صاحب نفثات اليراع، وأستاذنا الجليل مكى شبيكة، وتلميذه النابه الأستاذ يوسف فضل، والشيخ الدكتور الريح العايد الروس

---

*ألقى هذا البحث فى الجلسة الرابعة من مؤتمر الدورة الخامسة والستين يوم الأربعاء ٢٢ من ذى القعدة سنة ١٤١٩ هـ الموافق ١٠ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٩ م.

وما كتبه فضلاء العلماء المصريين ومنهم من ألمَّ بالسودان أو عمل فيه، على رأس هؤلاء الدكتور محمد عوض محمد، ثم الدكتور محمد عبد العزيز أمين عبد المجيد، والدكتور عبد المجيد عابدين رحمهم الله جميعًا.

وقد كتب عن العربية واللغة في السودان غير هؤلاء على رأسهم الأستاذ نعيم شقير صاحب تأريخ السودان، والأستاذ عبد الحليم اليازجي صاحب الحركة الأدبية في السودان، والسير هرولد ماكما يكل صاحب القبائل العربية فى السودان والأستاذ هايلسون صاحب اللغة العربية في السودان بالإنجليزية، والدكتور عون الشريف صاحب موسوعة القبائل السودانية واللغة الدارجة في السودان- هؤلاء من تحضرني أسماؤهم وغيرهم كثير ممن عسى أن أكون قرأت لهم ثم ندت عنهم الذاكرة ومن غيرهم، ومن الجيل الذى تلا زماننا عدد كبير.

وقد وجدت فى الروض الأنف الذى هو شرح لسيرة ابن هشام وهو معروف متداول، أنه زعم أن العربية كانت معروفة في بلاد الحبشة قبل الإسلام. وقصة سيف بن ذى يزن تدل على شيء من ذلك. كذلك خبر قراءة سيدنا جعفر لسورة مريم عند النجاشى من غير تراجمة يُفْهِمُون معناها وفي الحديث أن التراجمة مما يكونون حضورا عند ملوك الأعاجم كخبر أبي سفيان مع هرقل ملك الروم الذى فى البخارى .

وفى كتاب للأستاذ يوسف فضل بعنوان تأريخ السودان وأفريقيا فى الجزء الثاني منه : " إن العربية قد وصلت إلى بلدنا السودان قبل الإسلام وأن العرب أنفسهم قد كان منهم بالسودان عدد قبل الإسلام. غير أن العدد الأكبر قدم من طريق مصر بسبب المعادن من ذهب وزمرّد، ثم فى زمان المماليك قد وقع ضغط وظلم على عرب صعيد مصر فرحلوا إلى السودان" . وقد عجبت من ذهاب

الأستاذ بروفسور يوسف فضل هـذا المذهب في أمر المماليك مع سماعي من المرحوم الدكتور حسن فتحي رحمه الله في بعض أحاديثه أيام عيد القاهرة الألفي سنة ١٩٦٩م حديث ثناء طيب على عصر المماليك. وقد سمعت من بعد ومن قبل غيره يذهبون هذا المذهب. وأنا خاصة لا أنسى في نفسي للمماليك أنهم أصحاب موقعة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ وأنهم كانوا حماة الأزهر، وأن بردة المديح وهمزيته وما تلا ذلك من تخميس وتسبيع وتتسيع لهاتين الدرّتين في مدح نبينا المحبوب صلى الله عليه وسلم قد كان أكثره في زمانهم فرحمهم الله وعفا عنهم أن يك بعض ما زعمه البروفسور يوسف فضل صحيحًا .

على أن البروفسور يوسف فضل بتفصيله وبحثه الدقيق يذكر أن عربا كثيرين استوطنوا بلاد المريس من أرض النوبة واستعجموا لما كثرت مصاهرتهم لهم . وشرح البروفسور يوسف فضل اسم المريس بأنه هو الذى أطلقه العرب على إقليم النوبة بين أسوان إلى دنقلة أو دونها شيئا، ولم يشرح ما أسماه المريس أهو من المرس أى الحبل إذ كان البحارة يضطرون إلى جر المراكب بالحبال في هذا الإقليم، أم هو من المريسة؟ وهى شراب ضعيف الإسكار يصنع من الذرة ويُمْرَس بالأيدى مثل أن يجعل في آنية الشراب، وكلمة سيرقوسا التى تطلق على الجعّة في أرض إسبانيا لعلها خلط من كلمتى "شربات" وينحى بالألف نحو الواو مثل الموصوف في النحو بأنه ألف التضخيم في لسان أهل الحجاز ومريسة - من مرست شيئا في الماء إذا وضعته فيه لينقع. عندى أن اشتقاقه من حبل جرّ المراكب أقوى وأشبه، لأنهم كانوا يجرون المراكب في زمن التجاريق في أرض الجنادل- والمرس بالتحريك الحبل وهى في

عاميتنا فصيحة. وأهل النوبة ذوو تجربة قديمة في الملاحة والعمل البحرى. وفي كتاب تأريخ العفر أى الدناكل للدكتور هاشم الشاميّ (أصله من الشام ولكنه أثيوبي معاصر) أن أول أساطيل البحار صنعها المصريون وكان أولها إبحارا على عهد سحر رع في حوالى سنة ٢٣٠٠ ق.م، وكان بحارته نوبيين من جزيرة الفيلة بأسوان، وهم الذين دلوه على معرفتهم البحر وأغْروه أن يمكنهم من أسطول يسيرون به إلى أرض بنط .

والحديث عن أرض بنط هذه وأصلها قد يطول ولعلّ مزيجا من العاملين باللسانيات والآثار والحفريات والتأريخ أن يكونوا أدرى من كاتب هذه الأسطر بالنظر فى أمرها . وإنما أكتفي فى هذا المجال المختصر الحدس أن أشير إلى جواز وجود صلة بينها وبين فنج وكفنجة اسم قبيلتين بالسودان الشمالي وكنج كوش الذى يقال إنه سبق سيدنا إبراهيم الخليل إلى معرفة التوحيد ويدعى الفرس أنه سبق زرادشت وكان فيهم وزعم الأزرقى أن الفرس كانوا يحجون إلى البيت الحرام قبل الإسلام بزمان يضعف دعواهم سبق كنج كوشهم لإبراهيم الخليل وكلمة زنج ليست ببعيدة الجرس من كلمة ماقزوا التى تطلق على المجوس فى بلاد هوسا وزعم أحد فضلاء الباحثين عندنا بالسودان أن كلمة فونج ليست بعيدة من كلمة فينيقيا وهذا باب واسع .

وفي كتاب تأريخ أفريقية والسودان الذى أشرت إليه آنفا أن بعض العرب سكنوا بلاد المريس وصاهروا فيها واستعجموا. وفي كتاب سبائك الذهب فى أنساب العرب أن قبيلة يقال لها الحدربة (أحسبها من الحضارمة) سكنوا مع البجاة واستعجموا .

وقد يرى بعض الباحثين أن بلاد البجاة وبلاد النوبة غربلت العرب إلى داخل السودان بدليل الذى شهده ابن

بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي من وجود بعض الكواهلة مع إبلهم أو ماشيتهم بمراعي سواكن وقد صار الكواهلة من بعد إلى أرض كردفان والنيل الأبيض. وقد قدم الرشايدة في القرن التاسع عشر الميلادى من المشرق من طريق البحر الأحمر فأقاموا بشرق السودان ثم تسربوا إلى داخليته وهم يتكلمون عربية مشرقية اللهجة كأنها من شرقي نجد أو العراق. مع هذا عندى أن تمكن العربية من وسط السودان دون أطرافه مع عجمة هذه الأطراف وتمكن العجمة منها حتى لقد تؤثر على الوافدين العرب حين يؤثرون الإقامة فيها، كأنه منبئ أنه ينبغي أن يكون للعربية أصل قديم أصيل في الوسط. ويقوى هذا الحدث أن العربية التي في وسط السودان، على وجود تشابه مابينها وبين عربية الحجاز والأردن وصعيد مصر وبعض اليمن الشمالي، مختلفة في جوهرها، كثيرة المادة، لاتزال تحتفظ بصيغة المبني للمجهول ونون النسوة وضروب من التكسير والمصادر مثل فِعّال وتِفعَّال،الأول : نحو كِضّاب بإمالة الألف وقلب الذال ضادا كما يحدث كثيرا في لهجة السودان وهى كِذّاب التى في سورة "عم" وتِفِرق بكسر التاء وكسر الراء المشدّدة صيغة من التفراق التي نسبها المعرّى إلى تأبط شرًّا في طيف ابنة الحر، إذ كنا نواصلها ثَمَّ .

واتباع نون النسوة الفعل الماضي بدون تسكين آخره ذكره سيبويه في إلحاقها بنحو ردّ في قولهم ردّن - وهو مطرد عام عن كل فعل ماض عندنا نقول ردَّنْ وقالَنْ .

ومن صيغ المبنى للمجهول فِعِل كقِتِل وضِرِب، وأما الموسوعة اللغوية فواسعة وفيها الاستعمال النادر.

وذكر غير واحد من مؤرخي اليونان أن العرب كانوا بشرق النيل من عند مصر إلى أرض علوة وذلك شرقى الخرطوم.من هؤلاء استرابو،

وذكر هيرودوتس مشاركتهم لدارا الأول في حرب ماراثون ، والراجح أن غرب النيل كان يحكمه النوبة أو الكوشيون الذين يقال لهم العنج عندنا بالسودان ويسميهم التأريخ بمروى القديمة. وقد خبرني المرحوم الدكتور أمير مصطفى عالم الآثار المصرى أن عنج معناها حاكم. وهل عنخ تحريف عنج؟ وهل فنج بعيد من ذلك أو قريب ؟ الله أعلم .

والغالب على الظن أن العرب استوطنوا أرض شرق النيل بدليل وجود آبار بها غاية فى العمق - ففى ناحية شرق شندى في منطقة المصورات بئر نحو ستين باعا منحوتة من رأسها إلى مكان الماء فى الحجر وهى وحدها موضع الماء ذى المدد وكل ماحولها حتى ما احتفره الإنجليز وركبوا عليه الطلمبات لايستمر سحب الماء منه طويلا. وفى ناحية الثميد بالبطانة إلى جهة الشرق نحو نهر أتبرا بئر مبدؤها نحو من ثلاثين باعًا، ثم الحفر اتجاهًا أفقيًّا نحو باعين أو ثلاثة، ثم ينحدر عموديًّا حتى يصل الماء بعد نحو سبعين أو ثمانين باعًا - أكثر من مئة متر. هذا الحفر للآبار عربيّ النسخ. وما يزال الأعراب أهل البادية إلى يومنا هذا هم أعرف الناس بحفرها وهم القنّاؤون مثل هدهد سيدنا سليمان عليه السلام .

وسمعت من أهل الأخبار الموثوق بهم عندنا أن إحدى القبائل طغت على قبيلة أخرى بأرض البطانة وكادت تستأصلها. وكان لهذه القبيلة المغلوبة علم عند كبيرها فخبر زعيم القبيلة الغالبة بأمر مرض يعروه كان يكتمه يقال إنه كان نوعا من الصرع الموسمي. وأعلمه أنه يقدر على مداواته كما قد قدر على حدسه من غير أن يخبره به أحد. ولما داواه، وكان اشترط عليه إذا داواه أن يكافئه بما يطلبه منه، سأله أن يسمح له أن يحتفر بئرا حيث يقف به حماره. فاحتفر بئرا وجاءت شراذم من بقايا

قبيلته فالتفوا حولها، وجاءت القبيلة الغالبة تبغى منعهم فشكاهم إلى رئيسهم، فقال لهم رئيسهم: إنى أذنت له أن يحتفر بئرا حتى في يافوخ رؤوسكم، قالوا وجعل الشيخ البصير اللبيب بين حين وآخر على بعد زمن بين كل حينين يحتفر بئرا حيث يقف به حماره ، ياله من حمار فطين، وما مر جيل حتى كاثرت القبيلة التي كادت تستأصل حتى صارت هى أكثر القبائل عدًّا ومددا بأرض البطانة .

هذا ويقال إن سبب غلبة العرب على الوسط آخر الأمر نشأت من المصاهرة. وعرف من كانوا هم أهل الدولة بغرب النيل من جعل وراثة السلطة والملك لأولاد البنات. خلافا للعرب الذين كانوا عند كثير منهم الأخذ بقول القائل :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا
بنوهن أبناء الرجال الأباعد

ولله الحمد أولاً وأخيرًا .

وله العلم كله وهو القائل في كتابه العزيز: " وفوق كل ذى علم عليم ".

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

عبد الله الطيب

عضو المجمع من السودان